

التربية الوطنية في مصر

للاستاذ عماد الدين عبد الحميد

المحقق بمصلحة الآثار

من المسائل ما لا يحتاج إلى تدليل على صحته، ومن هذا أن قوة الروح المعنوية في الأمم، وأن نشأة الشعوب نشأة قومية، وأن حب الآحاد لأوطانهم حيا يجعلهم يقبلون مسرورين جميع التضحيات في سبيل صيانة هذه الأوطان والسمو بها؛ أن كل هذه المعاني لا يمكن أن يجيء عفو أو أن يوجد مصادفة، لكنه يتم بتدبير محكم، وفق سياسة مرسومة قد يخضعان إلى حد ما لتأثير الطبيعة، لكنهما يجب أن يكونا إلى حد بعيد من صنع هذه الأمم عامة، ومن صنع الموجهين لدفة سفيتها الخاصة.

انتهت أم حية إلى هذا من زمن، وأيقنت أن قوة جيلها الحاضر وأجيالها المستقبلية لا يقضى أن تكون كاملة — أو أن تكون كافية لتحفظ للأمة مكانها — إن هي تركت للطبيعة وحدها تصونها وتميها.

انتهت لهذا أم يختلف نظام الحكم في بعضها عنه في البعض الآخر، انتهت له أم نظام حكمها (ديموقراطي) وأخرى نظام حكمها (دكتاتوري). لكنها جميعا جعلت من أول أسس حياتها أن تنشأ الأجيال متتابعة تنشئة تضمن لها القوة اللازمة، وتحقق لها ما ترجوه من أن تكون دائما سيدة نفسها، إن لم تكن — كما قد تحب — سيدة غيرها من الأمم.

ووضعت الدول لهذا نظما، لها قواعد وحدود معلومة، وحتمت أن تسرى هذه النظم في البيت وفي المدرسة وفي الطريق وفي كل مكان... ولا أكون مغاليا إذا قلت إن هذه الدول قد راعت تنفيذ هذه السياسة في الجو وفي البحر وعلى رعاياها في البلاد الأجنبية.

فهو أستطيع أن أعرف لمصر سياسة معلومة في التربية الوطنية، تؤدي إلى الفرض المرجو من هذه التربية...؟ هل أستطيع أن أقول إن أجيال هذه الأمة — منذ مائة عام على الأقل — نشأت في سياج من التريب، يجعلها تعرف حقوقها وواجباتها، فتقدس حقوقها بأن تمتع نفسها بها ولا تسمح بأن تمس هذه الحقوق بضر، وتقدس واجباتها فتؤديها راضية فائقة؟

وهل أستطيع أن أقول: إن الجيل الجديد، الجيل الحر المستقل... يربي اليوم لينشأ وهو يجب بلاده ويؤثرها بالحياة دون نفسه، ويفهم جيدا لماذا هو يجب بلاده ولماذا هو يؤثرها بالحياة ويؤمن بما يفهم جيدا وإيماننا يجعل هذا الحب أو هذا الإيثار

مبدا على عقيدة سليمة راسخة ، وليس قائما على طواهر وقتية من الحماسة والانددع ،
وليس مصطنعا اصطفا من كلمات تردد كالوطن واخرية . دون أن يكون مثل هذه
الكلمات ما يجب أن يكون لها من معنى معلوم ، مدروس بالعقول ، مستقر في الأذهان ؟
إني أود أن أحيب على هذا الإيجاب ، ولكني لا أستطيع أن أحيب إلا بأمر
فيوتنا ما تزال لا تعرف سياسة وطنية في تلتنة الأجيال . أما ما أراي وأدني بيلها
أحدونة كأحدونة " الدببة الثلاثة " تنق كل ليلة وكل نهار في مسامع الأطنل ، ولا تلق
قصة بطولة لبطل من الأبطال

أليس مثل هذا واقعا . . . أليس هذا التلقين الخرافي هو ما يملأ رأس الطفل حتى
يبدو صبيا ، ثم يتلوه - إذا ما غدا صبيا وشابا - تنقير لإجرامى هو أنه يجب لا يهتم بمسائل
السياسة والوطنية حتى يصير رجلا . . . فإنا ما صار رجلا يحيط بمحيط من ترددات
الحسرة واليأس من أن تكون حب بلاد خيرا مما هي عليه ، وإن أخير كل الخيرات أن
يعمل لنفسه دون سائر الناس ، وأن للبلاد ما يحبها .

هكذا تلقن لوطنية في البيوت . . . وأما في المدارس فمن حديث وطنيه يكاد
أن يكون من المجموعات إن لم يكن منها فعلا . . . والتربية الوطنية في المدارس دروس كسائر
الدروس أو أوقاف منها قيمة ، تنق وأوقات قصيرة متباعدة قد لا تستغرق أكثر من ساعة
في كل أسبوع . وعاما تنق على تلاميذ فرقة ما بالمدسة الابتدائية ، وعاما تنق على
من المدارس الابتدائية وتقرر فرقة ما بالمدارس الثانوية ، وعاما تنق من برنامج هذه الفرقة
لتضاف إلى برنامج فرقة أخرى . . . وبهذا قد يتم مصري دراسته دون أن ينق عليه درس
واحد في التربية الوطنية النظرية ، وقد طواها الاضطراب المستمر في برامج الفروع المدرسية
هذا عن التربية لوصية النظرية في المدارس . نكن الوصية يجب لا تقتصر
في المدارس على مثل هذه الدروس . فكل علم من العلوم التي تدرس للطلاب قد يجمع
بجلا للتربية الوطنية

اللغة العربية : أمثلة لقواعد وتطبيق ، موضوعات الإنشاء ، كتب المنطاعة . والمختار
للحفظات ؛ كل هذا لا يصنع مجالاً للتربية الوطنية ؟ إنما ما زال نطاع في أمثلة قواعد
كثيرا كقولهم " كتب محمد الدرس " حتى يقال بدلا من هذا " رفع محمد العلم " بمثاله
كثير ؟ وفي موضوعات الإنشاء : إن السيارة ما زالت وكراسياتها تعانق انقطاع مند عرشت
السيارة أو عرف لقطار . . . حتى يتم أجل هذه المتاعرة لتفزع لشيء جديد ، من نوع جديد ،
يلئم العصر الجديد

واجغرافيا والتاريخ . أليس لنا من موقعنا الجغرافي وثروتنا الجغرافية ما يسمح بأن يجعل
من ذكرهما حديث وطنية إلى أبناء الجيل . . . ؟ أليس في تاريخنا ما يسمح بمثل هذا . . .

لماذا تمر هذه اندروس هكذا شيئاً جامداً . ولماذا لا تكون عبراً وطنية وعظات قومية تتفق وما يجب أن يكون °

ودروس الحساب ، والمسائل الحساب ! . . . مازالت " الحفظة تصب والبالوعة تفرغ " منذ زمن طويل ، وما زالت دروس الحساب رقماً لا أكثر ولا أقل . . .
أذكر أني قرأت عن كتاب في الحساب وضعه "أوتوكوهر وأوليس جراف" ليعلم تلاميذ المدارس في ألمانيا الحديثة ، فننظر مثلاً من مسائل ذلك الكتاب ، لتعرف أي حد يستغل هذا الدرس في تربية الأجيال وإعدادها للقوة والسيادة :

" كان على ألمانيا أن تسلم التوى المتحانفة مقاطعات يبلغ عدد سكانها ٥,٥٧٩,٩١٢ من الأنفس ، فإذا كانت فرنسا قد استولت على الألزاس ولورين ويبلغ عدد سكانها ١,٨٧٥,٠١٤ نسمة ، وبلجيكا استولت على أبيين مالمادي وعدد سكانها ٦٠,٩٢٤ نسمة ، والدانيمارك على شلويج وهولستين وعدد سكانهما ١٦٦,٨٩٥ نسمة . وإذا كان انفصال داننرج وميميل سبب خسارة قدرها ٤٧٠,٩٩٨ من الأنفس ، والباقي ضم إلى بولنده فأوحد :

(أ) مقدار الزيادة في تعداد بولندا .

(ب) مقدار الخسارة في عدد السكان لدى أصاب ألمانيا في شرق الامبراطورية .

وهنا في مصر : الدين المصري ، توزيع الثروة العقارية ، الثروة الزراعية ، الصحة والمرض ، العلم والجهل ، حركة الصادرات وأوردرات ، تعداد الجيش على مر الأيام وعلاقتنا بأسودان ، أليس في كل هذا ما يسمح بأن تقع أعين الطلاب على أرقام وتشتعل أذهانهم بحل مسائل تجدي وتفيد °

هذا عن البرامج ، ولكنها ليست كل شيء في المدرسة ، وهناك ما هو أهم منها وأجدى ، ذلك هو تمكين الأستاذ وروح لأستاذ ، فإن كل لحظة تمرين الأستاذ وطلابه يمكن أن تستغل في عبرة وطنية أو درس قومي ، لو كان لدى الأستاذ الاستعداد الكافي لاستغلال وقت الطلاب وتوجيههم هذه الوجهة الطيبة .

وإن كل حركة تصدر عن الأستاذ وكل إشارة منه وكل لفظ يخرج من فمه يمكن أن يستغل في تربية الأجيال تربية وطنية سليمة . فالطلاب لا يأخذون عن أحد بقدر ما هم آخذون عن أساتذتهم ، ومن الخطر أن يتهاون الأستاذ في مراعاة ما يجب أن يأخذه طلابه عنه . وحرماً أن تضع قيمة الأجيال هكذا سدى ، لأننا ضلنا أو أهملنا في كيف ومتى يمكن ويلزم أن يلقن النشء دروس الحياة الوطنية .

في البيت ، في المدرسة ، في الطريق ، في الملاهي والملاعب ، في القطر ، وفي كل وسائل الاتصال بالجمهير . . . في كل هذا يجب أن يوجد مجالاً للتربية الوطنية ، وفق سياسة حكيمة ، لا بطريق الارتجال .

الآباء والأمهات في المنارل ، الأساتذة في المدارس ، القائمون على أمر التعليم في مصر ، المشرفون على أعمال الإذاعة وبرامجها ، الموجهون للحركات الاجتماعية في البلد ، هيئة الصحافة ، كل هؤلاء مسئولون عن هذا الواجب الوطني الكبير .

لبعض هؤلاء عندهم عن تفسيرهم في الماضي ، في أنهم عاشوا بتفكير غير الذي نعيش نحن به ، ولكن على كل مسئول في الدولة ، وعلى كل مثقف أن يؤدي اليوم واجبه في هذا الأمر . فمن وجب الدولة أن توضح للوعي قيمة المثل العليا ، وتبين لهم السبل إليها ، وترسم لهم سياسة السير في هذه السبل ، وعلى كل مثقف أن يعاون الدولة في تحقيق هذا الأمل بما في مقدوره من وسائل .

يجب أن يكون لنا غرض سام نسمى له ، وبوجه إليه . ولا بد أن تكون لنا طرق معينة نسلكها للوصول إلى هذا الغرض السامي ويحتم علينا أن نمر بها . ويلزم أن تكون لنا وسائلنا لترغيب جمهور الأمة في الأخذ بهذا التوجيه الجديد .

ومن هذا تتكون لنا سياسة وطنية معروفة ، علينا أن نجعلها نابعة مطردة ، تتناقلها الأجيال وتحفظها وتميها لتتركها أمانة لكل جيل جديد .

وليس هذا التريب الوضئ مما يحتاج إلى مال حتى يؤجل تنفيذه للصيق المائي ، وهو العذر لكل تأجيل في اصلاح يؤخر تنفيذه . ولكنه في حاجة إلى عقول مفكرة ، ثم إلى التنفيذ بغير تردد لخلق مصر الحديثة .

لقد عانوا على جماعة من الشباب المصري أنهم كانوا تقدموا طلابا بالكلية الحربية ، فلما أعلنت الحرب القائمة تخلوا فاستردوا أوراقهم من هذه الكلية . لكنني أحد هؤلاء عذرا في أنهم لم ينشأوا تشبئة تؤدي بهم إلى حير من هذا . ما دم درس التربية الوطنية الذي أخذوه — إن كانوا أخذوا شيئا منها — هو سخرية الدروس داخل المدرسة ، وما دام للتلقين الرسمي الذي تملأ به أبحاثهم خارج لمدارس هو من نوع إذاعة اسطوانة "يا عرقسوس" !

أرجو أن يتم قريبا ما يلزم لتكون لنا سياسة في التربية الوطنية ، واضحة الغاية معلومة الوسائل . نسمى جميعا لتحقيقها ، حتى يكون في مصر جيل لا يجد غريبا في قصة رويت عن جندي أصيب في إحدى المعارك ، وكان لابد لاقاد حياته من نقل دم غيره إليه . فلما علم ذلك من أطباء الجيش المعادي بخيشه — وقد وقع في يد عدوه — طلب أن ينقل إليه دم من أحد رفاقه في الجسس والوطن... وقد تعذر ذلك ، فأبى أن ينقلوا إليه دم أي انسان ورضى الموت ، ولم يرض أن يمزجوا دمه بدم غير وطني .

عماد الدين عبد الحميد